

# روح الالهة - اسلام

للدكتور محمد عوض محمد

رأسي على يدي ، محققاً في مصطلحي تشتعل فيه النار . كأنما كنت أتمس الالهة من لهيبها المندلع وقبسها المضطرم . وأطقت المصاييح كي لا يلهيني عن التفكير ما بالحجرة من أثار أو صور . . .

لم أكن - علم الله - من المامين بعلم الدين . وكنت أحس من نفسي عجزاً وقصوراً ، عن معالجة تلك المسألة ، ولكني رغم هذا رأيت أن احاول معالجتها ما استطعت الى ذلك سبيلاً . . . وجعلت أجهد فكري أيما اجهاد . وخيل لي أني أرى أمامي سبلاً كثيرة فجعلت أسلك كلامها ، ولا أزال أتبعه الى نهايته ، ثم أعود فأسلك طريقاً آخر فأجتازه الى غايته : وكانت كل خطوة تدفعني إلى خطوة أخرى حتى أبلغ نهاية المرحلة . . . وهكذا سلكت في تفكيري وبحثي طرقاً شتى . وعجبت إذ ألفتيتي أصل في كل مرة إلى غاية واحدة ، ويسمى البحث الى شيء واحد . . . فقد كانت ينتهي بي التفكير دائماً الى التوحيد . . .

لعل روح الاسلام إذن هو التوحيد . . . وهل أراني بلغت الغاية حين رست في سفينة الفكر على ذلك الساحل الأمين ؟ أليس التوحيد أن يقصد الناس بجسدهم وبروحهم وجه الاله ، ولا ينصرفوا عنه الى سواه ؟ والا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ؟ . . . وأن نرتفع بأنفسنا عن عبادة تلك الأوثان البشرية وعبادتها ذل واثم ، وهي تمثال ما بالعالم من شر ورجس ؟ أليس التوحيد هو الذي يرتفع بنا عن عبادة المال والتكالب على جمعه . . . وعبادة الشهوات التي تسترقنا وتذلنا . . . أليس التوحيد إذن هو الذي يعلو بأنفسنا عن كل دنى مهين ، ويرقى بنا الى سماء كلها طهر وصفاء ؟

فيم التردد إذن ؟ ان روح الاسلام هو التوحيد .

\*\*\*

جالت بنفسي هذه الخواطر ، وجعلت أرددها في صدري مراراً فلا تزداد الا ثباتاً ورسوخاً . وخيل لي اني اهتديت إلى اجابة صريحة - لا لبس فيها ولا ابهام - على السؤال الذي سئلته صباح ذلك اليوم .

وكنت أخشى الا التقي بصاحبة السؤال إلا بعد أيام ، فأردت أن ارسل اليها الجواب في طي كتاب

فتناولت قلماً وورقاً ، واوقدت المصاييح ، وجعلت أسطر ما جال بخاطري ، في شيء من الاسهاب والتفصيل ، كي لا يبقى في صدر القارئة ذرة من الشك في صحة ما استقر عليه رأيي .

منذ سنوات كنت اطلب العلم في جامعة لقربول . . . وفي ذلك الزمن كنت قد عاهدت نفسي وعصبة من الرفقاء ، منذ نزلنا بلاد الانكيز على الأناؤو جهداً في افهام القوم أمر بلادنا ، واطلاعهم على مالنا من تاريخ مجيد وثقافة جلييلة . فكنا نرحب بكل من جاء يستطلع منا خبراً ، أو يستفتينا في أمر يمت الى الشرق بسبب .

وفي يوم من أيام الشتاء ، بعد انصرافي من إحدى المحاضرات ، ابترتني طالبة من الطالبات بالسؤال الآتي : هل تستطيع أن تخبرني في كلمة واحدة أو في كلمات قلائل ما روح الاسلام ؟

أدهشني السؤال لأول وهلة ، ونظرت الى السائلة نظرة الحائر المستفسر . فأدرت أن في السؤال شيئاً من الغموض . فقالت : « إننا - مثلاً - نرى أن روح المسيحية يتمثل في لفظ واحد وهو الحب . فهذا هو لب لباب ديننا ، والاساس الذي شيدت عليه صروح المسيحية كلها . فما من عقيدة ولا شعائر ولا تعاليم . الا والحب محورها الذي تدور حوله . ولا تكترث لما قد تراه مخالفاً لذلك فها هو من المسيحية في شيء . . . »

فقلت : « إنك إذن تريدين مني كلمة واحدة أو كلمات قلائل ، تكون من الاسلام بمثابة كلمة الحب من المسيحية ؟ »

فقلت : « أجل فقد يكون روح الاسلام مثلاً العدل أو القوة . . . »

فأطرقت قليلاً ، وأنا أمعن في التفكير ، لعلني أهتدي الى جواب ترضاه وأرضاه . وخطر لي أن أشرح لها أن للاسلام أركاناً خمسة . . . لكنني ذكرت أن في المسيحية ايضاً صلاة وصياماً . وخشيت أن تقول لي إن هذا من الدين بمثابة الجيم وأنها تبحث عن الروح .

قلت لها في صراحة : « إنني ما خطر لي يوماً أن ابحت عن كلمة واحدة تؤدي كل ذلك المعنى الجليل الخطير . . . وأتم معشر الانكيز قوم يحبون تبسيط كل مسألة . . . ومع هذا أمهليني أدبر الأمر ، أو أسأل أهل الذكر . فلا خير في جواب عاجل لا ينطوي على الصواب . »

\*\*\*

في مساء ذلك اليوم جلست في حجرتي مطرقاً ، مسنداً

ماشككت في أنه (مامون) إله النصار . إن لم تنم عنه صورته  
فقد نم عنه رواده وقصاده .  
جنود مجندة وكتائب محشدة . قد أقبلت على عبادته بأيد  
مدودة ، ووجوه تفيض شرهاً وجشعا .

وقد حمل كل عابد قربانه : هذا يقرب الشرف ، وذلك يذبح  
الدين ، والآخر يقدم الوفاء والميثاق ، وذلك يقرب وطنه الذي  
نماه وغذاه ، وصاحبه يقدم الأهل الذين انجبوه ... وها هنا  
شخص يحرق ضميره ومبدأه بخوراً .. . وهناك آخر يضحى بما  
لديه من عفاف وكبرياء ...

وكأن ليس في العالم شيء أعز وأكبر من أن يكون قربانا  
لذلك الصنم المائل الديميم . الذي كان يقبل القربان حيناً ، ويزور  
عن عباده أحياناً ، فلا يزيدهم نفوره وازوراره إلا تهاكبا  
عليه ، وغلواً في عبادته ، وأكثراً من الضحايا والقرايين ...  
ثم نظرت الى اطراف الهيكل ، فابصرت جموعاً أخرى  
حاففة على أوئان آخر : ها هنا إله الشهوات وقد احتشدت  
عبيده من حوله . وهناك وثن المناصب والجاه والناس من  
حوله ركع سجود ... وفي هذه الناحية وتلك شكول وضروب  
من أصنم يكاد يخطئها العمد ، ويعجز عنها الوصف .

\*\*\*

وأنيبت نفسي بعد قليل أتفلس الصعداء ، وقد انجابت  
عن عيني تلك الرؤيا ، ولم يبق أمام ناظري سوى الغيث المنهمر ،  
والضباب المنتشر ، وضوء المصابيح الضئيلة .  
ولبتت برهة واجماً ساكناً : وقد امتلأت نفسي حزناً  
وغماً .....

ثم نهضت ببطء شديد ، وأغلقت النافذة وأسدت الستر .  
وعدت الى مجلسي بجانب الموقد ...  
وأمسكت بيد مرتجفة ذلك الكتاب الذي تعبت في  
تسليبه وتحييره ...

وبيد مرتجفة القيت به في النار ... وجعلت أحرق فيه إذ  
يجور لهيباً ودخاناً ...  
وأحسست بقطرات تنحدر على خدي .. فتنازلت مندبلي  
ومسحتها ... ولعلمها من قطرات ذلك الغيث أصابت وجهي  
وأنا جالس لدى النافذة !

\*\*\*

أنفيت الفتاة بعد أيام فأعادت السؤال فقلت لها ان كان روح  
النصرانية الحب ، فان روح الاسلام التوحيد .

وأعدت تلاوة الكتاب مراراً ، واطمأننت الى انه يؤدي كل  
ما جال بنفسي أحسن الاداء . وكنت بهذا فرحاً طروباً . ثم  
طويت الكتاب ، وهضت لاجله الى دار البريد .

في تلك الساعة كان المطر ينهمل مدراراً . فجلست الى جانب  
النافذة انتظر عليه يكف أو يسكن قليلاً .. وجعلت أنظر الى  
خارج الدار . أتأمل الغيث اذ يتساقط على أحجار الشارع  
الملساء ، والضباب الخفيف وقد انتشر في سائر الارحاء .  
والمصابيح وهي تبدو ضئيلة فاترة خلال الضباب والغيث .  
وكأنها أشباح اليقين وسط دياجير الشك .

لم يطل تأملي لذلك المنظر حتى عاد بي الخاطر الى موضوع  
الكتاب الذي يدي .. وانتقل بي التفكير من الاسلام الى  
البلاد التي تدين بالاسلام . وجعلت أنظر بعين الوهم الى تلك  
الأفكار ، التي يفصل بيني وبينها آلاف الأميال . وأخذت  
رأسم أمامي صورتها شيئاً فشيئاً ...

ليت شعري ماذا في بلاد الاسلام من روح الاسلام ؟  
وماذا في بلاد التوحيد من التوحيد ؟

غشيتني شيء من الدهول . ورسم الوهم أمام عيني صورة  
مروعة مفضعة هائلة ، لتلك الأقطار القاصية ..

رأيت البلاد . قد حلق فوقها عقاب البغي ، باسطاً عليها  
جناحيه ، ومنشأً فيها أظفاره ، وقد خضعت لسلطانه الرقاب ،  
وغنت لحشيتها الوجوه ! وهلمت الأفتدة . وذلت الاعناق ،  
ورغمت الأنوف !

وانطلقت الأفواه تسبح بحمده ، وتمجده ، وهو لا يزداد  
الابغياً وعتواً ، والاعناق لا تزداد الاخشوعاً وذلاً .

\*\*\*

وتبدلت الرؤيا بعد ذلك .. فأبصرت هيكلًا عظيم البناء ،  
لا يبلغ الطرف مسداه . ورأيت الناس منطلقين إلى ابوابه  
الكبيرة ، ليقيموا الشعائر .. زمر تسمى إثر زمر .. جموع  
تتجاذب وتتدافع ، ويموج بعضها في بعض ؟ .. ولا تكاد  
الابواب تحتويهم على سعتها ...

ثم انكشف الغطاء وأبصرت ما بداخل الهيكل .. فاذا  
أوئان هائلة ، قد نصبت في أرجاء الهيكل . ومن دون كل صنم  
مدبح عظيم تقدم اليه انقرايين ، ويحرق عنده البخور . والناس  
من حولها بين قائم وقاعد وركع وساجد ..

نظرت ذات اليمين فاذا صنم جبار أصفر اللون ، براق لامع ،